علم الانسان

(٣) اللغة

اعظم ما يميز الانسان عن سائر الحيوان تلك القوة التي يستهل صبية المدارس انشاءاتهم بذكرها حيث يقولون « سبحان من خلق الانسان وميزه على الحيوان بالنطق واللسان » . فاذا صح ان اللغة بنت العقل صح كذلك ان العقل ابن اللغة . وكما ان العظم قوام اللحم كذلك النطق قوام حياتنا العقلية والروحية

خص الانسان بسيادة هذا الكون وآلة هذه السيادة العقل . ولا ريب انه لما استعان على العصر الجليدي بالنار وصمد للحموث ودب الكهوف فصرعها وعاش بعدها كان قد صار حيواناً عاقلاً ما فتئ يرتقي حتى بلغ الاوج الذي نراه فيه الآن . وكان قد صار حيواناً مفكراً وان كانت افكاره ضيقة المجال قصيرة المدى . بل ان هناك قوماً يقولون انه كان قد صار حيواناً ناطقاً يعبر عن تلك الافكار الضيقة باصوات ذات مقاطع ولا يحولون عن هذا القول الا اذا ثبت لهم ضده . وعندهم ان الانسان الاول حاول الكلام حالما تعلم الوقوف منتصباً على قدميه فافلح في ذلك كثيراً او قليلاً

ولسنا نعلم بالتمام متى بدأ الانسان الكلام فقد تضاربت الآراء في اصل اللغة وخصوصاً في النصف الثاني من القرن الماضي لما كانت خواطر العلماء مشغولة بالمذهب الداروني . فذهب فريق الى ان مصدر الكلمات الاولى التي نطق الانسان بها اصوات حاكى بها نباح الكلب ومواء الهر وخوار الثور وعواء الذئب وهلم جرًّا . وذهب فريق ثانٍ الى ان مصدرها الاصوات التي تستعملها عند هياج العواطف . وحاول فريق ثالث ان يقسم اللغات الى اصول شتى ثم يرجعها الى اصل واحد فيحل بذلك مسئلة اشكلت على العلماء حتى الآن وهي مسئلة تفرق الاجناس المختلفة وتوزعها على وجه الارض

على ان هذه المذاهب كانت اشبه شيء بفقاعات زاهية الالوان ما عتمت ان انفجرت واضمحلت . فان البحث في لهجات الهمج المعاصرين لنا لم يسفر عن وجود الشيء الكثير من أسماء اصوات والتقليد كما ذهب اليه اهل الفريق الاول والثاني . ثم ان المقابلة بين اللغات الآرية او ما تسمى بالهندية الاوربية (ومنها الفارسية والهندستانية) ترجعنا الى الوراء ثلاثة آلاف سنة او اربعة آلاف في الاكثر وليست هذه المدة بالشيء المذكور بالنسبة

الى زمن الانسان . وقد دل البحث ايضاً على وجود لغات ولهجات لا عداد لها حيث كان بعض العلماء يحاولون ارجاع اللغات كلها الى اصول قليلة . ففي اميركا الشمالية وحدها خمسون لهجة مستقلاً بعضها عن بعض . وعليه ازداد الاعتقاد بان الجنس واللغة ليسا متلازمين اذ اي عالم من علماء اللغات كان يستطيع — اعتماداً على درس اللغة الفرنسوية الحديثة وحدها دون مساعدة التاريخ — ان يكتشف ان جمهور اهل فرنسا من سلالة الغاليين القدماء الذين كانوا يتكلمون اللغة الكلتية[1] حتى اكرههم غزاة الرومان على استبدالها بشكل من اشكال اللغة اللاتينية . ثم ان اللغة الكلتية في دورها كانت قد حلت قبل ذلك بزمان قصير محل لغة اخرى ربما كانت قريبة من اللغة الباسكية[2] التي لا تزال حية الى الآن . ولكن ذلك لا يستلزم كون غزاة الكلتيين حلوا محل الذين غزوا بلادهم كلهم ومحوهم كما محت اللغة الكلتية اللغة السابقة لها . والخلاصة ان الاجناس سهلة التمازج اما اللغات فلا تتمازج الا نادراً

ولكن طرق تفاهم الناس عموماً واحدة في كل مكان وان تكن لغاتهم متباعدة تباعداً تاماً . وهذه الطرق[3] المشار اليها هي الكلام والرمز والاشارة والكتابة وقرع الطبول وايقاد النيران وغير ذلك مما يكاد شيوعه يحجب عنا عظم شأنه ومعناه

وغني عن البيان ان علم الانسان لا تقوم له قائمة بلا مساعدة علم اللغة . فان فهم لغة قوم تريد البحث في اصلهم وفصلهم انما هو اهم ادوات البحث . لذلك لا غنى عن ان يكون الباحث في علم الانسان متضلعاً من علم اللغة عارفاً موضع كل لغة يدرسها من التاريخ قادراً على بيان ادوار نموها وتقلبها تبعاً لحاجات زمانها و بيان علاقة الالفاظ بالمعاني

لو سئل رجل غير متضلع من علم اللغات ما هي الصورة القائمة في ذهنك عن لغة هذه القبيلة او تلك من القبائل الهمجية لأجاب انها اولاً قليلة الالفاظ . وثانياً ان تلك الالفاظ قصيرة المباني شاملة المعاني او هي اصول قليلة الفروع اولا فروع لها كرجل ودب واكل وقتل وهلم جرًّا . والحقيقة ليست كذلك . فان اهل ارخبيل تيرا فويجو مثلاً (الارخبيل الواقع

---

(١) الكلتية او السلتية Celtic

(٢) لغة الباسك في جنوب فرنسا وشمال اسبانيا بشرق

(٣) وقد سماها العرب الدوال او الدلالات وقال بعضهم انها اربع وبعضهم خمس وهي اللفظ والاشارة والعقد والخط والنصبة او الحال الناطقة بمكونه

في اقصى اميركا الجنوبية جنوباً) ليسوا من الحضارة في شيء ومع ذلك فقد وجد عالم حاول وضع قاموس للغتهم ان فيها ٣٠ الف كلمة بعد طرح كثير من الكلمات التي لا شأن لها . في تلك اللغة عشرون كلمة او ضميراً بمعنى هو وهي . وفيها اسمان للشمس واسمان للقمر واسمان للبدر . وفي كل من الاسمين الاخيرين اربعة مقاطع وليس احدها مشتقاً من الآخر او مشتركاً معه في اصله . فالالفاظ عندهم كثيرة والمعاني قليلة وهم يعبرون بتلك الالفاظ او الاصوات عالك ام قصرت عن مرادهم ولو بطريقة ناقصة ولكنهم لا يتبادلون الافكار والآراء التي هي وحدها « نقود » الفكر الصحيح

مثال ذلك « قطعت ساق الغزال عند مفصله بقطعة حوان » فان هذه العبارة تؤدي الى ذهن المخاطب معنى المتكلم مجرداً من غير نظر الى ما قد ينطوي تحت ذلك من التفاصيل والمعاني الاخرى ككون المتكلم كان جائعاً ومتعجلاً يهيئ عيده لنفسه ولغيره الى آخر ما هنالك . وما يقال في لغة هؤلاء الاقوام يقال ايضاً في لغة سائر الممعج فانهم يحشدون عدداً كبيراً من الاصوات والمقاطع في كلمة او عبارة واحدة لتعبر عن مرادهم مفصلاً من مثل العمل وغايته وآلته ووقته وسائر ما يتبع ذلك من الحركات والسكنات . فكلمة « ماميهلايتايا » في لغة النويجيين المذكورين تعني « نظر كل الى الآخر وهو آمل انه يقترح عمل شيء يرغب كل منهما فيه ولكنهما يأبيان عمله » . ولما كانت هذه الحالة لا يمكن ان تتكرر بجميع مفصلاتها وكانت الكلمة المذكورة موضوعة لها دون غيرها فظاهر ان هذه الكلمة قد لا يلفظ بها الا مرة واحدة في العمر . وعليه لا يفتح الواحد منهم فاه الا ليلفظ بكلمة او عبارة جديدة لا وجود لها قبلاً . وهذا امر على غرابته يفسر لنا ميل الاقوام الممعجية الى تغيير اخلاقهم وصفاتهم في زمن وجيز

مثال آخر من لغة اخرى وهي لغة « هورون اروكويز » ففيها لفظة « اسكويرهون » تعني « ذهبت الى الماء » ولفظة « ستسها » « اذهب الى الماء » ولفظة « اوندكوها » « في الداوماء » ولفظة دوستتيواشاريت « في القدر ماء » . ولكنهم اذا اراد اراد الماء وحده فعندهم لهذه لفظة « اوين » . كذلك يستطيع بهذه اللغة ان تعبر باصوات خاصة عن عشرين نوعاً من انواع القطع المختلفة مثلاً ولكن لا كلمة فيها لقطع المجرد . فلا عجب والحالة هذه اذا رأى العالم المشار اليه انه مضطر الى وضع قاموس ضخم للغة النويجين . ولكلمات « ابي » و « ابوك » و « ابوه » و « ابيها » في لغة الزولو الفاظ تختلف بعضها عن بعض

غير مشترك في شيء اي ان لفظة اب الموجودة في الكلمات الاربع المذكورة ليس لها ما يقابلها في لغة الزولو

من هذا ترى ان ارتقاء لغة ما هو انتقالها من هذه الصور التركيبية الى الصور التحليلية فان الفاظ اللغة اسماءها وافعالها وحروفها اشبه الاشياء بصندوق القطع الخشبية التي يلعب بها الاطفال فانك لا تستطيع ان تركب بها تراكيب جديدة على ما تشاء الاَّ اذا كانت مستقلاً بعضها عن بعض . وترتيب الكلمات ووجود النبرة فيها كافيان لتركيب الجمل والعبارات . والواجب ان تكون كل كلمة مستقلة عن غيرها قائمة بنفسها . وكل ما يطرأ عليها من التغيير بانتقال النبرة من طرف فيها الى طرف او بادخال المزيدات عليها يفضي الى تخصيص معناها وتضييق دائرة استعمالها . وقد يبقى معنى الكلمة مضطرباً مشوشاً مع استعمالك ابسط العبارات والتراكيب ولكنهُ لا يبلغ الى درجة سامية في التعبير عن معانيهِ اذا كانت لغتهُ قاصرة ليس لالفاظها معانٍ محدودة . نعم ان التفكير بلا كلام ليس مستحيلاً ولكن كون الكلمات مفرغة في قوالب معينة يسهّل تفاهم الناس وتخاطبهم اذا عبرنا عن كل معنى باللفظ الخاص بهِ

ومن غريب ما يذكر عن بعض لغات الهمج ان في تراكيب الفاظها عبرات تختلف باختلاف المعاني . فعندهم علامة للعاقل وعلامة لغير العاقل . وعلامة للملك الثابت واخرى للمنتقل . فاذا اراد احدهم ان يقول « يدي » وهي ملك ثابت استعمل ضميراً يخالف الضمير الذي يستعملهُ للفظة « قاربي » وهي ملك منتقل . « وولدي » عندهم مثل « يدي » اي ملك ثابت غير منتقل . واذا ارادوا الكلام عن الرجل بحضورهِ قالوا « اينيها » وعن المرأة بحضورها قالوا « اناما » اما الغائب والغائبة فلهما الفاظ اخرى تعبر عنهما وعن اختلاف حركاتهما . واذا كان الرجل والمرأة جالسين قالوا عن الاول « هنيها » وعن الثانية « هانيها » وهكذا اذا كانا ماشيين او راكبين او نائمين او كان الكلام عنهما منفردين او مشتركين مع غيرهما

وفي البعض الآخر صورتان لضمير « نحن » صورة تعني « كلنا » وصورة تعني « بعضنا » ولذلك ترى المبشرين في هذه القبائل يعنون باختيار الصورة اللازمة . فاذا اراد احدهم ان يقول « نحن اخطأنا » اي كلنا وجب ان يستعمل الكلمة الشاملة والاَّ ظن السامعون ان طغمة المبشرين التي هو منها اخطأت دون غيرها . واذا وقف للصلاة واراد القول « نحن اخطأنا » وجب ان يستعمل الصورة الثانية التي تعني « بعضنا » لئلاَّ يدخل الله سبحانهُ

في ذلك الحكم . ومثل هذا لفظة « انا » فقد يكون معناها « انا في الجملة » او « انا وحدي دون غيري » . واذا شاء الاب ان يتكلم عن نفسه وعن ابنه استعمل لذلك ضميراً يختلف عن الضمير الذي يستعمله لو اراد الكلام عن نفسه وعن رجل آخر معه غير ابنه . ولهم صور متعددة للدلالة على عمل اثنين مع واحد او اثنين او اكثر من اثنين في الماضي والحاضر

***

هذا وقد كان المذهب الشائع قبلاً ان لغات البشر متفرعة كلها من اصل واحد ولكنهُ مذهب لا يؤيدهُ برهان فقد يمكن ان تكون اللغات فروعاً من اصل واحد ولكنها اختلفت كل الاختلاف في كلماتها وصور تلك الكلمات حتى لم يبقَ فيها شيء يدلّ على وحدة ذلك الاصل . وقد يمكن ايضاً ان تكون لهجات الناس الاولين او لغاتهم متعددة في الاصل وهذا الفرض يسهّل تفسير ما يرى من الاختلاف الكلي وعدم وجود وجه الشبه بين لغات الياسك والصينيين واهل بيرو والهوتنتوت والسنسكريت مثلاً

قلنا فيما مرّ ان الجنس واللغة ليسا امرين متلازمين اي ان لغة قوم ما ليست في نفسها برهاناً شافياً على جنسيتهم . فسكان هذا القطر من قبط وعرب وترك وسوريين يتكلمون العربية وهم من اربعة اجناس مختلفة . وقس على ذلك اهالي سورية وبر الاناضول وبلدان كثيرة

وفي معظم امم الارض او كلها تزاوج الغزاة الغالبون والمغزيون المغلوبون وبذلك قد تكون اللغة المتكلَّم بها نتيجة تغلّب الامم بعضها على بعض كما تكون نتيجة التقليد او اكثر منهُ . وليس طول اللغة العربية في مصر والشام محل القبطية واليونانية والارامية سوى مثل من امثلة عديدة على موت لغات قديمة وقيام لغات جديدة مقامها

فظاهر من ذلك اي من فناء بعض اللغات وحلول لغات اخرى محلها في عهد التاريخ انهُ لا يصح قسمة الناس الى آريين وساميين وتورانيين وشبه ذلك اعتماداً على شهادة اللغة فقط اذ اللغة شاهد مجروح الشهادة